معالم الأخلاق
في البلاغة العربية

إعداد الأستاذ الدكتور
سعيد أحمد السيد جمعة
أستاذ البلاغة والنقد
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
مدينة السادات ـ جامعة الأزهر

معالم الأخلاق في البلاغة العربية

سعيد أحمد السيد جمعة
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بمدينة السادات ، جامعة الأزهر.
البريد الإلكتروني sag2765@gmail.com

ملخص البحث:

هذا البحث يجيب عن عدة أسئلة وهي: ما العلاقة بين البلاغة والأخلاق؟ وهل علم البلاغة العربية يحض على الأخلاق الحسنة ؟ وهل يظهر ذلك في مكوناته ؟

والمعلوم أن علم البلاغة العربية يدرب طلاب العلم على أن يطابقوا بين الكلام الفصيح ومقتضى الحال، ويعلمهم وسائل التأثير في المخاطبين، وكيف يختارون المعنى والكلمة والأسلوب، وهذا كله يدور في فلك من القيم الأخلاقية التي نشأ العلم في رحابها، فلقد نأ هذا العلم في رحاب القرآن الكريم، والسنة الشريفة، فترى في جنبات العلم حديثا عن الصدق والكذب، والمدح والذم، والهزل والجد، وغير ذلك من معالم الأخلاق، مما يعني أن علم البلاغة وثيق الصلة بالأخلاق التي هي غاية الإسلام، وعمود الأمم، وروح الحضارة،... والبحث يحاول أن يكشف الستار من خلال المنهج الوصفي التحليلي عن هذه المعالم الكامنة في المكونات الأساسية، مثل: (المصطلح، والشاهد، والتحليل) ليصل في النهاية إلى نتيجة حتمية مؤداها أن البلاغة العربية معنية بالأخلاق الكريمة كما هي معنية بإيصال المعاني إلى القلوب في أحسن الصور من الألفاظ .

Ethical Signs in Arabic Rhetoric

Saeed Ahmad El-Sayed Gomaa.

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Al-Azhar University, Sadat City, Egypt.

Email: sag2765@gmail.com

Abstract:

This research addresses several questions: What is the relationship between rhetoric and ethics? Does the science of Arabic rhetoric encourage good morals? And does this appear in its components ?It is well-known that the science of Arabic rhetoric trains students to align eloquent speech with the context, teaches them methods to influence audiences, and instructs them on choosing meaning, words, and style. All of this revolves around ethical values that guide this science, which has developed under the umbrella of the Quran and the noble Sunnah. In the discipline, we encounter such terms as truthfulness and falsehood, praise and blame, humor and seriousness, and other ethical aspects, indicating that the science of rhetoric is closely connected to ethics, which are the objective of Islam, the foundation of nations, and the essence of civilization. This research, which makes use of a descriptive-analytical approach, attempts to uncover the ethical aspects embedded in the essential components of Arabic rhetoric such as terminology, evidence, and analysis. The research has reached the inevitable conclusion that Arabic rhetoric is as concerned with noble ethics as it is with conveying meanings to hearts in the finest form of words.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن علومَ العربية كلَّها علومُ دِين، والربط بينها وبين الدين حتمٌ لازم، والذي يتعلم العربية ولا يعرف مقاصدها الدينية فكأنه لم يتعلم شيئا، فحين تقف في علم النحو أمام قول العلماء (إن الفاعل مرفوع) فلا ينبغي أن تمرر هذه العبارة دون تأمل، لأنها تُعلمك مع النحو أن تكون فاعلا في هذه الحياة، وليس مفعولا به، ولا تابعا، أن تكون مرفوعا وليس مجرورا ولا مكسورا، فالفاعل هو الذي ينبغي أن يُرفع وأن يُسمع، فهو ركن في الجملة، وجزء لا يستغنى عنه، فليس الفاعل فضلة، ولا تابعًا، فالدنيا لا تحترم الفضلة، فإن أردت الرفعة فكن فاعلا، هكذا تخبرك الجملة النحوية.

وحين تسمع العلامة ابن مالك صاحب الألفية وهو يقول لك: (كلامنا لفظ مفيد كاستقم) فلا تترك هذه الجملة حتى تنفق من وقتك وعقلك الكثير لتعرف مقصود من صاغها، ووضعها في صدر الكلام، فالجملة تزرع في نفسك أن المسلم لا يتكلم باللغو، وإنما كلامه كله مفيد، فالرجل يقول: (كلامنا) أي: كلام المسلمين جميعا مفيد، فإذا رأيت متكلمًا يتكلم بالكلام غير المفيد فاعلم أن هذا الكلام ليس من كلامنا، والرجل يتحدث في النحو، ولا تظن أن علم النحو بعيد عن الأخلاق والدين، فالنصيحة التي تراها في المسجد هي المعلومة التي تتعلمها في النحو، وراجع شواهد علمائنا، ومصطلحاتهم في كل فن من فنون العربية لتستيقن بأن علومنا كلها دين وأخلاق، ولا يجوز الفصل بين علوم العربية وغايات الدِّين، فالمعلوم يقيناً أن غاية الدين هي الأخلاق لقوله صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1]. وفي علم البلاغة – وهي

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣١٦ لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ) ت مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية – بيروت.

المقصود هنا – أقف معك وقفات على معالم الأخلاق في هذا العلم، لنقرأ سويا بعض السطور في كلام العلماء الذين سطروا لنا القواعد، ومزجوا فيها بين قواعد البلاغة ومعالم الأخلاق، فهذا البحث يحاول أن يلقي الضوء على الخيوط الرابطة بين علم البلاغة والأخلاق الإسلامية ،كما يحاول أن يفتش عن الفكر الأخلاقي الذي مزجه البلاغيون بالقواعد وحصُّنوه بالشواهد، وفصلُّوه بالشروح والتعليقات، لنكشف للقارئ الكريم أن هذا العلم دين، كما نقل الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه عن أبي هريرة وكذلك نقل عن سيدنا أنس بن مالك قولهما " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه" (١).

ومنهج هذا البحث منهج وصفي تحليلي لكلام قدامى البلاغيين الذي وضعوا الأسس العامة لعلم البلاغة، نتوصل من خلاله إلى الفكر الأخلاقي المعجون بالقاعدة البلاغية، لنثبت للقارئ الكريم أن البلاغة ليست بمعزل عن الأخلاق، وأن علوم اللغة كلها علوم أخلاقية، تقوِّم النفس قبل أن تقوِّم اللسان، وتُصلح القلب قبل أن تُصلح اللغة، وتُزيِّن السلوك قبل أن تزيِّن الكلام .

ويتكون هذا البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرس، أتناول في المقدمة فكرة البحث وأهميته ومنهجه وخطته، وأتناول في المبحث الأول: معالم الأخلاق في الأبواب البلاغية، وفي المبحث الثاني أتناول معالم الأخلاق في المصطلحات البلاغية، وفي الفصل الثالث أتناول معالم الأخلاق في الشواهد البلاغية، ثم تأتي الخاتمة لتلخص النتائج التي توصل إليها البحث، وما يحويه من توصيات، ثم في النهاية فهرس لموضوعات البحث وعناوينه.

(١) تحبير الوريقات بشرح الثلاثيات لأبي وداعة وليد بن صبحى الصعيدى ١/ ٧.

المبحث الأول

معالم الأخلاق في الأبواب البلاغية

حين تراجع أبواب البلاغة، سواء في علم المعاني أو علم البيان أو علم البديع، تجد أنها في الظاهر تعلمك إتقان الكلام، وتحسين الألفاظ، وتجويد النظم، إلا أنها في جوهرها عند التأمل تعلمك حسن الخلق، والارتقاء بالذوق، وجمال الأدب . وأقطف لك بعض هذه الثمار.

ففي باب التقديم والتأخير، هذا الباب الذي يُخفي خلفه بدائع ولطائف، وخبايا تحتاج إلى تأمل، حين تتوقف عنده تجد عجبا، وأول هذه العجائب أنه يعلم القارئ أن كل شيء مهم ينبغي أن تقدمه على غيره، فالأهمية دائما للمُقدَّم، وأن هناك فرقًا بين قول الله تعالى: (والله خبير بما تعملون) وقوله (والله بما تعملون خبير) وبين قوله (والله غفور رحيم) وقوله (وهو الرحيم الغفور) وهذه الفروق حين تتعلمها لابد أن تستفيد بها في حياتك، فتعرف الفرق بين أوامر الله وأوامر البشر، فتقدم أوامر الله على أوامر البشر؛ لأن أوامر الله تعالى لا ينبغي أن تؤخر لو كنتم تعلمون.

وحين يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تسمع لكلام غيره من الناس، ولا تقدم كلام أحد من الخلق على كلام رسول الله، فلقد كان ابن عباس رضي الله عنه يقول منكرا لبعض تلاميذه: (أحدثكم عن رسول الله وتقولون قال فلان وقال فلان)[1].

كذلك يعلمنا التقديم والتأخير أن نَعرف أقدار الناس كما نعرف أقدار الكلام، فكما أن في الكلام مقدما ومؤخرا كذلك في الناس مقدم ومؤخر، فلا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م ٢/ ٢٠٦.

تقدم أولادك على أبيك، واصنع ما صنعه أحد الثلاثة الذي أغلق عليهم الغار[١]، حين وقف بإناء اللبن على رأس أبيه ينتظره حتى يستيقظ، ويشرب أولا، وأولاده تحت قدميه يتضورون جوعا، ولا تقدم شيئاعلى أمك، كما فعل (جريج) [٢] حين آثر صلاته على نداء أمه فدعت عليه فاستجيب دعاؤها، ولو دعت عليه أن يفتن لفتن.

كما يعلمنا باب التقديم والتأخير أن نعرف أقدار الكبار فنقدمهم في المجالس، ونضعهم في مكانتهم اللائقة بهم، وأن نعرف أقدار العلماء فنوقرهم ونجلهم، وحين يتكلم العالم فعلى الجميع أن ينصت، فليس منا من لا يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه، كما يعلمنا باب التقديم والتأخير أن نقدم الفرائض على النوافل، ونقدم ما حل وقته من الطاعات على غيره مما فيه فسحة ،.. وكم في البلاغة من دروس وعبر في الآخلاق والآداب .

وأنتقل بك إلى باب آخر، وهو باب الفصل والوصل – وهو أحد أبواب علم المعاني، وهذا الباب يعلمنا من نصلهم من الناس ومن نقاطعهم، ومَنْ من الناس يستحقون كمال الاتصال، ومن يستحقون كمال الاتقطاع، فكما أن في الكلام كلاما يجب أن يوصل، ففي الناس كذلك أناس يجب وصلهم، وكما أن في الكلام كلاما يجب أن يقطع، ففي الناس كذلك من تجب مقاطعتهم، والبراءة منهم، فالبلاغة ليست علما مفصولا عن الدين والحياة والأخلاق، بل هي صورة لهما، وتعبير عنهما، وإحساس بهما.

---

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى: ٢٦١ هـ دار الجيل – بيروت – مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ ص ١٨٧٥.

(٢) صحيح مسلم ١٧٥٥.

وباب الفصل والوصل باب مشغول بالعلاقات بين الجمل، وقضية العلاقات بين الكلام لا تقل أهمية عن العلاقات بين الناس، فحين تقرأ مثلا قول الله تعالى: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) تجد أن جملة (زهق الباطل) عطفت بالواو لأنها مغايرة لمعنى جاء الحق، لكن العلاقة بين جملة (زهق الباطل) و(إن الباطل كان زهوقا) علاقة اتحاد وتماثل، ولذلك لم تكن في حاجة إلى رابط، بل التصقت مباشرة بها، فالأولى وليدة من الجملة الثانية، وكأنهما شيء واحد .

أما إذا تباينت المعاني، وتغايرت الأغراض، فلا تضع جملة بجوار الأخرى، بل خصام وتباعد، تماما كالأعداء، فلا يجوز أن تجمع بين معنى له مقصد، ومعنى آخر له مقصد آخر بعيد، لأنك إن فعلت جمعت بين ما يُقبَّح وما يُعاب عليك، فلا تقل: (زيد طويل وعمرو شاعر) حيث لا علاقة بين طول زيد وشاعرية عمرو، فإن فعلت خرجت من دائرة البلاغة، لأنك جمعت ووصلت ما لا يوصل بينهما، فهل تستطيع أن تصل أولياء الله وأعداء الله، وهل تصل بين من ينبغي موالاتهم ومن يجب البراءة منهم، إن البلاغة حين تضع ضوابط للفصل والوصل إنما تعلمنا أن هناك من الناس من يجب وصلهم والاتحاد معهم، ومن يجب مقاطعتهم والبراءة منهم .

وأنتقل بك إلى باب ثالث وهو باب الحذف أو الصمت عن الإفادة كما قال الإمام، وهذا الباب قد يكون أبلغ من الكلام في بعض الأوقات، واسمع إلى كلام الإمام وهو يستخرج لك جواهر الأخلاق من رحم هذا الباب، حيث يقول: (هو باب دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر؛ فإنكَ ترى به تَرْكَ الذكر، أَفْصَحَ من الذكْر، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة؛ وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبِنْ)[1].

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) محمود محمد شاكر – مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة ص ١٦٣.

فالإبانة عما في النفوس لا تقتصر على الكلام، فالسكوت يبين، وإذا لم تستطع فهم سكوت الساكت، فلن تستطيع فهم كلام المتكلم، وحين تقلب النظر في بيان النبي صلى الله عليه وسلم ترى سكوته أكثر من كلامه، وصمته أطول من نطقه، مع أن مهمته صلى الله عليه وسلم في الدنيا هي البيان للناس، كما جاء في قوله تعالى " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" – النحل ٤٤ مما يعني أن السكوت في بعض الأوقات بيان، بل هو قمة البيان؛ لأنه يحمل من الدلالات ما لا يحمله الكلام، وبخاصة حين تغلق الآذان أمامك، وحين ترى اللغو والتشويش والإعراض عن كلامك، في هذا الوقت تصير الكلمات عديمة القيمة، ويبرز السكوت ليحمل من الدلالات، ما لا تحمله الكلمات .

ولا تعجب حين ترى خلف السكوت دلالات قد لا تجدها في الكلام، فالحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في السكوت، وخلق الحياء لا يدل عليه إلا بالسكوت، والتواضع يكون بالسكوت، وكظم الغيظ: يكون بالسكوت، وفي الحديث: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت " [١]، وحين جمع النبي صلى الله عليه وسلم بني هاشم ليدعوهم إلى الإسلام، وفاجأه عمه أبو لهب بالكلام الغليظ، والتهديد والوعيد حتى وصل الأمر إلى أن قال له " ما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به " [٢] ساعتها سكت رسول الله، ولم يتكلم في ذلك المجلس . نعم سكت كما سكتت السيدة العذراء مريم، حين قالت " إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا " مريم ٢٦ ولقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن السكوت عفو من الله تعالى، فقال: " ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما

(١) صحيح مسلم رقم ٣٢.

(٢) الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري دار الهلال – بيروت ط: الأولى- ص٦١.

حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فان الله لم يكن ينسى شيئا [١].

ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال:

إذا رمت أن تحيا سليما من الأذي ** ودينك موفور وعرضك صينُ

لسانك لا تذكر به عورة امرء ** فكلك عورات، وللناس ألسنُ

وعيناك إن أبدت إليك معايبا ** فدعها وقل ياعين للناس أعينُ

وعاشر بمعروف، وسامح من اعتدى ** وفارق، ولكن بالتي هي أحسنُ[٢]

وأنتقل بك إلى باب رابع من أبواب الأخلاق ترسخه البلاغة العربية، وهو التثبت والتحقق من الأخبار فإن من أهم الدروس التي تعلمها البلاغة لطلاب العلم مداومة البحث، والصبر عليه، والمراجعة، والتفتيش، وعدم الأخذ بالظاهر.

والبلاغة حين تزرع هذا في المخاطبين إنما تزرع فيهم خلقا إسلاميا عظيما، وهو التحقق من كل خبر، والاستيثاق من كل معلومة . امتثالا لقول الله تعالى: " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " الحجرات ٦

وهذا التحقق، وهذا البحث عن كل صغيرة وكبيرة يصورها الإمام عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز حيث يقول: (إن النظم الذي جاء عليه القرآن

---

(١) سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) ت / محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ص ٣٨٠٠.

(٢) ديوان الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ) قصيدة رقم ١٤٣.

الكريم مثل الصناعة التي لابد أن تعرف كل شيء فيها، فالصانع الماهر يعرف الخطأ والصواب في صنعته، ويميز بينهما، بل يعرف درجات الصواب، ودرجات الإحسان، ويحدد ذلك بالتفصيل، تماما مثل الحائك الذي يعرف كل خيط في الثوب، والبناء الذي يعرف كل لبنة في الجدار، والنجار الذي يفهم موضع كل مسمار في الخشبة، وهذا كله لا يمكن إلا بعد بحث وتنقيب، وصبر ومصابرة .

ويظن بعض طلاب العلم أن البحث العلمي لا يتصل بالأخلاق، مع أنه وثيق الصلة بها ؛ لأنه يعلم الباحث كيف يدقق في كل معلومه، وكيف ينسب كل رأي إلى صاحبه، وكيف يكون أمينا في نقل المعلومات، ولا يدعي ما ليس له، ولا يبخس عالما حقه، كما يعلمه أن التفتيش خلف المعلومات يحتاج إلى صبر، والصبر نصف الدين، ويظل عبد القاهر يلح على وجوب البحث والتفتيش عن كل معلومة، ويحذر من التهاون والتقليد والأخذ بالظاهر، ويوصي طلابه بالإلحاح على الغاية، وعدم اليأس من الوصول إليها، بل ومعرفة كل ما يحيط بالمعلومة من أدلة وتفسيرات؛ لأن علم العربية يستمد كل مقوماته من دين الله تعالى، ولو فتشت في كل قاعدة لغوية وكل باب أو فصل لوجدت الدين يقف من ورائه يغذيه، ويرفده بمقومات بقائه .

لذلك كان عبد القاهر يشد على يد الباحثين بأن ينفقوا من وقتهم ومن أموالهم، ومن تفكيرهم الغالي والرخيص للبحث والتنقيب، فهذا يعلمهم مع البلاغة أن يبحثوا عن الحقيقة، وألا يأخذوا بالظواهر .

المبحث الثاني

معالم الأخلاق في المصطلحات البلاغية

حرص علماؤنا وهم يضعون اللبنات الأولى لعلم البلاغة على اختيار المصطلحات التي تصور الأخلاق الإسلامية كما تصور القواعد البلاغية، فترى مثلا حديثهم عن الخبر والإنشاء يتطرق إلى الصدق والكذب، ويقولون: إن الخبر يعني: ما احتمل الصدق والكذب، والإنشاء يعني: ما لا يحتمل صدقا ولا كذبا، وهذا الاستخدام لكلمتي (الصدق والكذب) وهما من المصطلحات الأخلاقية، يعني أن علم البلاغة يوثق الصلة بينه وبين مكارم الأخلاق(١).

كما أن البلاغيين يذكرون مصطلح (القرينة) حين يتحدثون عن الإسناد، فتراهم يضعون في الإسناد غير الحقيقى قرينة، هذه القرينة مهمتها إعلام القارئ بأن هذا الإسناد لا يتوافق مع الواقع، فمثلا حين تقول: سار الطريق

---

(١) بل إنهم تحدثوا عن الصادق والكاذب، وقالوا: لا بد من التفريق بين الخبر والمخبر به، من جهة الصدق والكذب، لتنحل إشكالات قد توجه للتعاريف وبعض النصوص.فالخبر الصادق: هو ما كان من الكلام مطابقا للواقع في حقيقة الأمر. والخبر الكاذب، هو ما كان من الكلام غير مطابق للواقع في حقيقة الأمر.

أما المخبر الصادق فهو المخبر بخبر يدعي أنه صادق فيه، وهو يعتقد أنه حق وصدق، ولو كان ما أخبر به كذبا غير مطابق للواقع في حقيقة الأمر. وحين ينفي الحق وهو يعتقد صحة ما يقول فإنه يسمى نافيا، ولا يسمى جاحدا للحق، إذ هو يقول ما يعتقد. أما المخبر الكاذب فهو المخبر بخبر يدعي أنه صادق فيه، وهو يعتقد أنه باطل وكذب، ولو كان ما أخبر به صدقا مطابقا للواقع في حقيقة الأمر، ونفيه للحق يسمى جحدا وجحودا، فالذي ينفي أمرا وهو يرى أنه أمر ثابت هو جاحد .

انظر كتاب البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ) ١/ ٧٨ – دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ط/ الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

بالناس، وأنت تريد أن الطريق امتلأ بهم، حتى أن المشهد يوحي إليك بأن الناس لا يسيرون في الطريق، وإنما أصبح الطريق هو الذي يسير بهم، يقول البلاغيون إن (القرينة) هنا هي استحالة سير الطريق، لأن المكان لا يسير، وإسناد الفعل إلى مكانه قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، المهم أنك حين تسند الفعل إلى المكان أو إلى الزمان أو إلى السبب، فأنت لا تكذب، وإنما تبالغ في الدلالة، والمقصود هو نقل الإحساس والشعور الذي يستولي عليك .

كما أن في البلاغة العربية حديثا عن (حال المخاطب) وهذا المصطلح يعني الاهتمام بالناس، ورعاية حالهم، وعنايتهم بغيرهم، وهذا ملمح أخلاقي يذكرك بقول النبي صلى الله عليه وسلم (عَنْ أَنَسٍ – رضي الله عنه – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ والذي نفسي بيدِهِ لَا يُؤْمِنُ عبدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[١].

كل ذلك دلائل ساطعة تبين مدى حرص البلاغيين على المخاطب، وعنايتهم به، وإبعاد كل شيء يؤدي إلى إساءة فهم الكلام لديه، لذلك تحدث البلاغيون عن أشياء كثيرة في هذا الإطار، فالبلاغة تراعي حال المخاطب، ففي باب القصر يقسم البلاغيون القصر الإضافي باعتبار حال المخاطب إلى قصر (تعيين أو قلب أو إفراد)، وفي باب الخبر يقسم البلاغيون هذا الباب باعتبار المخاطب إلى خبر (ابتدائي أو طلبي أوإنكاري) وفي باب الإيجاز والإطناب تراهم يتحدثون عن أن الإيجاز وأن المتكلم يوجز الكلام مراعاة لحال المخاطب، ويطنب مراعاة كذلك لحال المخاطب،" فكل ما يطابق احتياج المخاطب هو الكلام البليغ، والمتكلم الذي يكون كلامه من هذا القبيل يقال له: متكلم بليغ"[٢].

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٧ .

(٢) البلاغة العربية لحبنكة ١/ ١٨.

وعلى ذلك فالمخاطب حاضر في العقل البلاغي، وهذا المفهوم مستمد من أخلاق الإسلام، ورعاية الإسلام للآخرين ففي قواعد البلاغة ما يدل على أن المتكلم يضع المخاطب نصب عينيه، فيذكر اللفظ من أجله، ويحذف اللفظ من أجله، ويقدم لفظا على لفظ من أجله ويؤخره من أجله، ويعرِّف الكلمة من أجله، ويجعلها نكرة من أجله، ويختار الفصل أو الوصل من أجله، ويختار القصر من أجله، ويؤكد الكلام من أجله ويختار الصورة التي تناسب حاله، والوشي البديعي الذي يناسبه...إلخ

فكل شيء يضعه المتكلم في الكلام يكون من أجل المخاطب .

بل إن العلماء احتاطوا فقالوا إن الكلام قد يذكر فيه أشياء لدفع اللبس، ودفع اللبس يكون من أجل المخاطب، فكلمة (القلب) – مثلا – في قوله تعالى: "مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" الأحزاب ٤ تحتمل أحد معنيين: القطعة من اللحم، والفهم والإدراك، لهذا أتي بكلمة (في جوفه) ليتعين المعنى الثاني ويزول اللبس.

لاحظ هذا، إن كلمة (في قلبه) جيء بها لزوال اللبس عند المخاطب .

وفي قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}، قالوا أيضا إن كلمة "في الصدور" جيء بها لدفع اللبس بأن المراد بها العيون الباصرة.

قالوا أيضا: في قوله تعالى: «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» التوبة ٧٨ إن الآية تكرر فيها لفظ «السوء» لأنه لو قال «عليهم دائرته» لالتبس بأن يكون الضمير عائدا إلى الله تعالى)[1].

كل هذا وغيره حتى لا يصل المعنى إلى المخاطب وفيه لبس، وهكذا تجد حرص البلاغيين على المخاطب وكأن البلاغة تمزج بين العلم وبين الأخلاق

(١) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» لأحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) ٢٠١/١.

التي تجعلك تحب لأخيك ما تحب لنفسك، فينبهون إلى أن الكلام قد توضع فيه علامات وإرشادات حتى لا يلتبس المعنى عليه .

******

ومن معالم الأخلاق في المصطلح أيضا ما يسمى بالمبالغات، فالبلاغيون حين أجازوا المبالغة في الكلام وضعوا للمتكلم حدودا لا ينبغي له أن يتجاوزها في المدح أو الهجاء أو الوصف، ونصبوا لهذه الحدود بابا مستقلا في علم البديع سموه (المبالغة) واشترطوا على المبدع أن يلتزم بهذه الحدود حتى يقبل منه الكلام فإن تجاوز الأديب هذه الحدود أخرجوا كلامه من البلاغة ووصفوه بالمذموم، وبخاصة إذا وصل في وصفه إلى ما لا يعقل، أو وصف ممدوحه بصفات لا تليق إلا في ذات الله تعالى، بل إنهم وضعوا للمبالغات المقبولة مصطلحات مثل التبليغ والإفراط والغلو، والبلاغيون وهم يضعون هذه الضوابط كأنهم يخافون على أخلاق الناس من الشطط حتى قال الجاحظ (وهم يعني العرب الفصحاء) وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف، والإسهاب والإكثار، لما في ذلك من التزيد والمباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في الغلو. وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة، لأن ذلك يدعو إلى السّلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء. وكل مراء في الأرض فإنما هو من نتاج الفضول.ومن حصّل كلامه وميزه، وحاسب نفسه، وخاف الإثم والذم، أشفق من الضراوة وسوء العادة، وخاف ثمرة العجب وهجنة النفج، وما في حب السمعة من الفتنة، وما في الرّياء من مجانبة الإخلاص)[١].

لاحظ هذا الحرص على الأخلاق، والخوف من ضياعها عند المبالغات، وترك النفس في ميادين التفاصح، فهذا باب خطير، والنفس إن ترك لها العنان

(١) البيان والتبيين لعمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ ج ١/ ١٦٨

قالت ما لا يجوز قوله، ولعلنا نراجع هنا ما حدث في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر فقال:

« إنه مانع لحوزته، مطاع في أدنيه» .

فقال الزبرقان: «أما إنه قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي» .

فقال عمرو: «أما لئن قال ما قال فو الله ما علمته إلا ضيق الصدر، زمر المروءة لئيم الخال، حديث الغنى»،

فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عيني رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة» .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم عند ذلك: «إن من البيان لسحرا»[1]

وإنكار النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن الفصاحة ليست هي الغاية، والبلاغة ليست هي المقصود، إنما الغاية والمقصود هو الصدق، وحين يخرج الكلام عن الصدق يكون الغضب من رسول الله، ولذلك أسرع عمرو بن الأهتم إلى الدفاع عن نفسه بأنه كان صادقا في الكلامين، حين مدح، وحين هجا .

لكنه استخدم في التعبير عن المدح جملة

(ما كذبت)

واستخدم في التعبير عن الهجاء جملة:

(ولقد صدقت)

والغاية منهما واحدة، لكن التدقيق والنظر والتأمل فيهما يجعلك تعرف لماذا خالف في التعبير، والذي يظهر لي أن سبب ذلك رغبته في تأكيد

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٦٦.

الهجاء، وأن صفات الزبرقان السيئة ظاهرة للجميع فلا تحتاج إلى دفاع ،فقال في شأنها (لقد صدقت) أم صفات الزبرقان الجيدة فإنها محل شك، وقد يعترض عليها من يعرفه حق المعرفة، ولذلك احتاج عمرو بن الآهتم إلى أن يدافع عن نفسه تجاهها فقال: (ماكذبت) وكأنه يقول :حتى وإن ظن الناس أنني كذبت وأنا أمدحه، وأنني أصفه بما ليس فيه فإنني ما كذبت فيها .

وهذا يستدعي الرجوع إلى هذه الصفات، وعند التأمل تجد أن صفات المدح التي ذكرها في شأن الزبرقان إنما هي في الحقيقة صفات يجب على كل رجل أن يتحلى بها، فهو يقول في الصفة الأولى: إنه (مانع لحوزته) ولا شك أن أي رجل يدافع عن أهل بيته، فهذه ليست من الفضائل التي يمدح بها الرجال؛ لأنه إن لم يفعل ذلك فلا يعد في عرف الناس رجلا.

وأما الصفة الثانية وهي أنه (مطاع في أدنيه) فتعني أن من دونه يطيعونه، وهذه أيضا لا تعد من الفضائل، لأن الفضيلة أن تطاع من الجميع، من الأدنى منك ومن الأعلى، سواء من قبيلتك أومن غيرهم، أما أن تطاع من الصغار في قبيلتك فلا فضل لأحد فيها؛ لأنها في طبائع العرب، في السادة الكبار، وفي غيرهم .

ومثال آخر تلحظ فيه أيضا ضبط النبي صلى الله عليه وسلم للكلام حتى لا يخرج إلى المبالغات المذمومة، فلقد جاء في شرح شواهد المغني لجلال الدين السيوطي أن النابغة الجعدي أدرك الاسلام فأسلم، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنشدته قولي:

وإنّــا لقــوم مــا تعــوّد خيلنــا ** إذا ما التقينــا أن تحيــد وتنفــرا

وننكر يوم الــرّوع لــو أنّ خيلنــا ** من الطّعن حتّى نحسب الجون أشقرا

ولــيس بمعــروف لنــا أن نردّهــا ** صحاحا ولا مســتنكرا أن تعقّــرا

بلغنــا السّــماء مجــدنا وجــدودنا ** وإنّا لنرجو فــوق ذلــك مظهــرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الى أين؟ قلت: الى الجنة. فقال: نعم، ان شاء الله.

قال: فلما أنشدته:

ولا خير في حلم إذا لم يكن لـــه ** بوادر تحمي صـــفوه أن يكـــدّرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ** أريب إذا ما أورد الأمر أصـــدرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يفضض الله فاك. فكان من أحسن الناس ثغرا، وكان اذا سقطت له سنّ نبتت له.) [1]

ولعلك تلحظ مقدار المبالغة، في قوله: (بلغنا السماء مجدُنا وجدودُنا) وهذه في عرف الناس نفاجة وكبر، وديننا يعلمنا ألا نزكي أنفسنا فقال سبحانه: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى " النجم ٣٢ حتى عقب النبي صلى الله عليه وسلم بالاستفهام، إلى أين ؟ وكأن هذا الاستفهام تقويم للعوج الذي لاحظه النبي في مبالغات الشاعر، لكن الشاعر أدرك هذا ووضعه في إطاره الصحيح وهو الوصول إلى الجنة، وهذا الطريق يطلب فيه الفردوس الأعلى، فأجاز النبي ذلك، وقال: نعم . فهذا ضبط أخلاقي لحركة البلاغة حتى لا تحيد عن جادة الطريق.

فالمبالغة مذمومة، لكنه حين توضع في نصابها فلا تعاب، وهذا يؤكد أن أئمة البلاغيين ما قصدوا إلى إهدار الجانب الأخلاقي وهم يعلمون الناس فنون البديع؛ لأن العرب تهتم بالألفاظ فتصلحها، وتهذبها، وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالحِكَم تارة أخرى، والأسجاع التي تلتزمها، وتتكلف استمرارها، ومع ذلك فإن الأخلاق أقوى عندها،

---

(١) شرح شواهد المغني لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـــ) ت/ أحمد ظافر كوجان – لجنة التراث العربي–ط/ الأولى ١٣٨٦ هـــ – ١٩٦٦ م ج ٢/ ص٦١٥.

وأكرم عليها، وأفخم قدرا في نفوسها . وإنما اعتنى العلماء بالمحسنات لأنها أسرع في الوصول إلى الأسماع، وأسرع في الوصول إلى القلوب، لأن النفوس تأنس بالزينة، وتهش لها وتبش، ولقد ذكر ابن جني عن شيخه أبي علي الفارسي أنه قال يوما لتلاميذه " إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه "

وراجع هذا الكلام لأنه يرسخ الأخلاق، ويقوم السلوك، ويزرع في النفوس العزة والكرامة حتى قال ابن جني: ألا ترى .. إلى قول العبد الأسود

إن كنتُ عبداً فنفسِي حُرَّة كرَماً ** أو أسودَ اللونِ إني أبيض الخُلُق[1]

وتأمل هذا المعني وما يتركه في النفس الحرة، من اعتزاز بالأخلاق، ورغبه في الحفاظ على الكرامة .

(١) الخصائص لابن جني الموصلي متوفى: ٣٩٢هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب ج ١/ ص ٢١٥.

المبحث الثالث

معالم الأخلاق في الشواهد البلاغية

عمد علماؤنا إلى اختيار الشواهد التي تحض على الأخلاق الكريمة عند الحديث عن القواعد البلاغية، وهذا الربط بين القاعدة البلاغية والشاهد الأخلاقي يضع العلم في الدائرة الأخلاقية، ويحوله من علم البلاغة إلى علم أخلاق، كما أنه يُحضر الخلق الكريم بحضور القاعدة البلاغية، فلا يتذكر طالب العلم القاعدة إلا وهي مصحوبة بالخلق القويم، وهذه الثنائية تقوِّم الخلق، وتجعل من البلاغة العربية وسيلة من وسائل التربية، ففي الإيجاز مثلا تجد التعريف مرتبطا بالشاهد الذي يحض على مكارم الأخلاق فيقولون:إن الإيجاز هو التعبير عن المعاني الكثيرة باللفظ القليل».وهذه الألفاظ القليلة يجب أن تفي بالمراد مع الإبانة والإفصاح والتناسق مع حال المخاطب، ثم ضربوا مثالا لذلك، واختاروا قول الله تعالى "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ" الأعراف ١٩٩ .

وهذه الآية تصاحب موقفا أخلاقيا لسيدنا عمر بن الخطاب وهو أنه كان وقافا عند أوامر الله تعالى، وكأن البلاغيين وهم يستشهدون بهذه الآية في باب الإيجاز يزرعون في طلابهم هذه الأخلاق، ويعلمونهم الوقوف عند أوامر الله تعالى، فلا تتعلم الإيجاز دون أن تتعلم الدروس التي يحملها الشاهد القرآني .

والموقف هو أن عيينة بن حصن بن حذيفة نزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله

عليه وسلم: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله»[١].

والطالب حين يدرس باب الإيجاز ثم يتبعه بالشاهد القرآني، ثم يختم بموقف سيدنا عمر بن الخطاب يكون قد حصل العلم والخلق، والأدب والفضائل، فهو لم يتعلم الإيجاز وحده وأنه اختصار الكلام، بل تعلم مع ذلك قوله الله تعالى الذي يأمر بالعدل ومراعاة العرف والعفو عن الجاهلين، وما أن يتعلم الآية التى تبرهن على الإيجاز إلا ويجد الموقف العظيم من سيدنا عمر بن الخطاب وهو يجسد الالتزام بهذه الآية .

****

ومن شواهد البديع تجد الحرص على خلق الكرم، وهو رأس الأخلاق العربية في الإسلام وقبل الإسلام، ومثال ذلك كما وضح قول زهير:

من يلق يوماً على علاته هرمــاً ** يلق السماحة منه والنــدى خلقــاً

فالبلاغيون وهم يختارون هذا المثال ليكون دليلا على اللون البديعي (الترديد) كأنهم يقولون لكل قارئ: اجعل هذا في عقلك ورددده، ولا تجعله يغيب عنك.

فالفعل المضارع (يلق) اتصل بكلمة (هرما) ويقصد به: هرم ابن سنان، ثم اتصل بكلمة (السماحة) والمعنى: من يلق هرما يلق السماحة، وهي جملة شرطية اتحد فيها فعل الشرط وجزاؤه، فلقاء هرم لقاء للسماحة والجود، وشاهدنا هو هذه الكلمة المرددة (يلق) وتكرارها يحمل دلالة تصويبية، تصحيحية تقول إياك أن تظن أنك حين تلقى هرم ابن سنان أنك

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ) ت: أبو تميم ياسر بن إبراهيم: مكتبة الرشد – الرياض الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م ج ١٠ ص ٣٣٣

التقيت فردا من أفراد الناس، كلا كلا، صحح معلومتك وصوب نظرتك، فأنت لم تلق واحدا من الناس بل التقيت بالأخلاق العالية، التقيت بالسماحة، التقيت بالندى، إن الكلمة المرددة، تصحح الكلمة الأولى وتحذفها وتضع مكانها ما ينبغي أن توقن به .

إن الشاعر يريد أن يصحح التصورات التي تختلط على الناس، ويريد أيضا أن ينقل إليك أثر هذه اللفظة عليه، وتوهجها بداخله، مما دفعه إلى تكرارها بهذا البناء العجيب، وهو ارتباط اللفظة بأكثر من متعلق، وتلك خصوصية هذا اللون البديعي، إن الترديد ليس كالتكرار، وليس كغيره من ألوان ذكر اللفظة الواحدة مرتين، إنما الترديد يعطيك من اللفظة الواحدة المكررة عائلتين متنوعتين، وفرعين منبثقين من الجذر الواحد فترى اللفظة الواحدة متجهة في جملة إلى جانب، ومتجهة في الجملة الثانية إلى جانب آخر، وهذا فرق مهم بين الترديد والتكرار المحس .

وقد يكون الشاهد البلاغي لتصحيح المفاهيم الخاطئة، وكثيرا ما يعمد البلاغيون إلى هذا، فمثلا حين يستشهد البلاغيون على أنواع الأمر وصيغ الأمر، تراهم يعدون من ذلك: اسم فعل الأمر، ويأتون بمثال من كتاب الله تعالى وهو قول الله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) المائدة ١٠٥

وهذا الشاهد حين يختاره البلاغيون يقصدون من ورائه تصحيح مفهوم خاطئ عند الناس وهو أن يترك العلماء الناس يفعلون ما يشاؤن دون توجيه، ودون نصيحة، ويبدأ البلاغيون الشاهد بتوضيح معنى كلمة (عليكم) وأنها تعني: إلزمها، وأصلحها، ثم يدلفون إلى المقام، والموقف الذي يوضح الآية فيقولون (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، كما روى أَبو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} المائدة: ١٠٥ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ

سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ، وَإِيَّاكَ وَأَمْرَ الْعَوَامِّ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ: وَزَادَ فِي غَيْرِهِ قِيلَ لَهُ: خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «خَمْسِينَ مِنْكُمْ»(١)

ويزيد البلاغيون في هذا ويتطرقون إلى موقف آخر فيقولون: وقد جاء أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية أنها لا يلزم معها أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فصعد المنبر فقال: أيها الناس لا تغتروا بقول الله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) فيقول أحدكم عليّ نفسي، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم، فليسومنّكم سوء العذاب، وروي عن ابن مسعود أنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم، وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: ليبلغ الشاهد الغائب، ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم، وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل.، وقال سعيد بن جبير معنى هذه الآية: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأمر بمعروف وغيره، ولا يضركم ضلال أهل الكتاب إذا اهتديتم)(٢).

ومن باب تصحيح المفاهيم أيضا ما ذكره الإمام عبد القاهر في شأن المقاصد التي تقف خلف الكلام، فرب كلمة طيبة أريد بها معنى غير طيب، يقول الإمام: ربّ كلمة حق أريد بها باطل، فاستحقّ عليها الذمّ... وربّ قول حسن لم يحسن من قائله حين تسبّب به إلى قبيح، كالذي حكى الجاحظ قال:

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٥٨.
(٢) أسرار المعاني للمؤلف صفحة ٢٤٢ طبعة دار العلم والإيمان ٢٠٢٢.

«رجع طاوس يوما عن مجلس محمد بن يوسف، وهو يومئذ والي اليمن فقال: ما ظننت أنّ قول:«سبحان الله» يكون معصية لله تعالى حتى كان اليوم، سمعت رجلا أبلغ ابن يوسف عن رجل كلاما، فقال رجل من أهل المجلس: «سبحان الله»، كالمستعظم لذلك الكلام، «ليغضب ابن يوسف .فبهذا ونحوه فاعتبر، واجعله حكما بينك وبين الشّعر)[1].

لاحظ كيف ربط الجاحظ بين الكلام الحسن البليغ وبين الحسنات والسيئات، وكيف يكون القول الحسن في الظاهر يراد به السوء، وهذا الفهم التقطه عبد القاهر ودونه في كتابه دلائل الإعجاز ليرسخ قاعدة بلاغية شديدة الأهمية، وهي أن الحسن لا يكتفي فيه بالظاهر، حتى ولو كان ذكرا لله تعالى، بل لابد من حسن الغاية التي يقال من أجلها الكلام .

وينقل البلاغيون النصوص التي تجعل من الأخلاق الحسنة شهادة يرتفع بها الكلام، ويفضل بها المتكلمون على غيرهم، فليست البلاغة معنية بحسن الكلام فقط، بل هي معنية أيضا بالمقاصد التي يحملها الكلام، ومن النماذج التي تؤكد هذا ما ذكره سيدنا عبد الله بن عباس أن سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال له: أنشدنى لأشعر شعرائكم. قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟

قال: زهير. قلت: وكان كذلك ؟

قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيّه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)[2].

وكلام البلاغيين وإحضارهم لمثل هذه الشواهد برهان ساطع على أنهم كانوا يعلمون الناس الأخلاق الإسلامية بجوار تعليمهم القواعد البلاغية .

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني صفحة ٢١.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد – نشر دار الجيل – ط/ الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

الخاتمـــــة

الحمد لله وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فلقد تبين من خلال هذا البحث أن علم البلاغة العربية وثيق الصلة بالأخلاق الإسلامية، فكرا، ومصطلحا، وشاهدا، وتحليلا .

كما تبين أن علماء البلاغة كانوا وهم يسطرون حدودها ورسومها كانوا يقصدون إلى تزكية الأخلاق، وتقويم السلوك، كما تبين أن من يقرأ علوم البلاغة الأصيلة لن يعدم في كل صفحة من صفحاتها إشارة إلى وجوب الاستقامة، وحسن الخلق .

يلاحظ في الخطاب الأخلاقي في البلاغة العربية الحديث عن المخاطب، والاهتمام بالطرف الآخر، وهذا من أصول الأخلاق الإسلامية، كما يلاحظ كثرة الحديث عن الصدق والكذب، ومقتضى الحال، وكل ذلك من أصول الأخلاق الإسلامية.

يتبين من القواعد البلاغية أنها في حقيقتها تعالج سلوكيات الناس، وكل ما يعبر عنه بالكلام داخل في هذه السلوكيات، من أدب مع الكبير، وخفض الصوت، وتقديم صاحب المكانة العالية، والإعراض عن اللغو، وصلة الرحم، وقصر العلاقة على الأهم في حياتك، وتوضيح المراد للآخرين، وتجنب السوء .... وكل شيء تفهمه في البلاغة له مردود سلوكي، مما يعني أن هذا العلم علم أخلاقي في المقام الأول .

فهرس المصادر والمراجع

- أسرار المعاني للمؤلف صفحة ٢٤٢ طبعة دار العلم والإيمان ٢٠٢٢.
- البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ).
- دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.
- البيان والتبيين لعمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ ج ١/ ١٦٨ .
- تحبير الوريقات بشرح الثلاثيات لأبي وداعة وليد بن صبحى الصعيدى.
- الخصائص لابن جني الموصلي متوفى: ٣٩٢هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) محمود محمد شاكر - مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة.
- ديوان الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ).
- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري دار الهلال - بيروت ط: الأولى ١٤٢٧هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.
- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) ت / محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

- شرح شواهد المغني لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)ت/ أحمد ظافر كوجان _ لجنة التراث العربي–ط/ الأولى ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.
- شرح صحيح البخارى لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ) ت: أبو تميم ياسر بن إبراهيم: مكتبة الرشد – الرياض الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» لأحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ).
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد - نشر دار الجيل – ط/ الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ١المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣١٦ لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله الطهماني النيسابوري(المتوفى: ٤٠٥هـ)ت مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية – بيروت.
- – المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى: ٢٦١ هـ دار الجيل – بيروت - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ ص ١٨٧٥.

فهرس العناوين

م	العنـــوان
١	ملخص البحث
٢	المقدمة
٣	المبحث الأول: معالم الأخلاق في الأبواب البلاغية
٤	المبحث الثاني: معالم الأخلاق في المصطلحات البلاغية
٥	المبحث الثالث: معالم الأخلاق في الشواهد البلاغية
٦	الخاتمة
٧	فهرس المصادر والمراجع
٨	فهرس العناوين